

الكلام وعلاقته بالتعلم

د/علي أحمد صالح

كلية التربية / جامعة طرابلس

بأي حال من الأحوال لا يمكن أن يكون هناك تعلم بدون تعلم الكلام، إن الكلام هو حجر الزاوية للتعلم؛ لذلك حاول العلماء الاهتمام بموضوع الكلام قديماً وحديثاً، وقامت حوله دراسات كثيرة ومتعددة من حيث مفهومه وأقسامه ... إلخ؛ ولهذا سنحاول تناول هذا الموضوع في بحثين: المبحث الأول يتطرق إلى مفهوم الكلام وتعريفه من حيث اللغة والاصطلاح، ويتحدث المبحث الثاني عن الفرق بين الكلام والقول واللغة، ثم أقسام الكلام، وفي مقام آخر سنتناول الكلام وتأثير المحيط الاجتماعي في تعلمه، وأخيراً خاتمة عامة.

● مفهوم الكلام :

لقد حظيت اللغة باهتمام ودراسة عميقة من طرف اللغويين، كما أن هناك مفاهيم لغوية أخرى لا تقل أهمية في هذا المجال، ولا سيما المفهوم اللغوي (الكلام)، فقد درسه اللغويون وعرفوه وحددوا أقسامه وأنواعه. وتوصلوا في دراستهم إلى أن هذا المفهوم يختلف عن مفاهيم أخرى كالقول واللغة التي لا يمكن تعلمها إلا من خلال الكلام، وقبل أن نتطرق إلى وجوه الاختلاف بين هذه المفاهيم لا بد أولاً من تحديد مفهوم الكلام كما جاء في القرآن الكريم، إذ نجد في القرآن كلام الله - سبحانه وتعالى - وكلماته وكلامه مالا يحد ولا يعد، وفي الحديث النبوي الشريف "أعوذ بكلمات الله التامات"، قيل هي في القرآن الكريم، وقال ابن الأثير "إنما وصف كلامه بالتمام لأنه لا يجوز أن يكون في شيء من كلامه نقص أو عيب كما يكون عادة في كلام الناس أو لغة باقي المخلوقات، والكلمة الباقية كلمة التوحيد، وعيسى كلمة الله لأنه انتفع به وبكلامه، ورجل كلامه وتكلام: جيد الكلام فصيح .

وقد تعرض ابن جني لمفهوم الكلام في كتابه الخصائص فعرّفه بقوله :

(أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه وهو الذي يسميه النحويون الجمل نحو زيد أخوك، وقام محمد، ضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاء، وعاء في الأصوات، وحس ولب، فكل لفظ استقل بنفسه وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام).¹ وأوضح من هذا التعريف أن ابن جني يشترط بعض الملاحظات في مفهوم الكلام وهي:

- أن يجتمع فيه أمران وهما : اللفظ والإفادة، والمراد باللفظ الصوت المشتمل على بعض الحروف. أما المفيد فهو ما دل على معنى يحسن السكوت عليه، أما الشرط الثاني هو أن يكون تاما مستقلا.

وهكذا يتضح لنا من هذه التعريفات التي حظي بها الكلام تشابهه وتتقارب في المعنى فكأن هؤلاء اللغويون بعضهم يحتذى بالبعض الآخر مما أعطى في النهاية تعريفا واحدا، فالكلام عندهم هو الجمل المركبة من معاني مفيدة وخير دليل على هذا أن الأمثلة والجمل التي استشهد بها ابن جني في تعريفه سماها كلاما لأن معناها تام ومفيد ومستقل في نفسه.

وابن جني أثناء دراسته لهذا المفهوم اكتشف أنه يختلف عن مفهوم آخر هو القول، ولهذا خصص له بابا سماه (هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول) تعرض فيه للمفهومين معا، وذكر أحكام هذين الأصلين على تصرفهما وتقلب حروفهما، ثم انتقل إلى ذكر الأمثلة التي توضح الفرق الحاصل بينهما، فبعد تعريفه للكلام والذي ذكرناه آنفا تطرق لمفهوم القول وأشار إلى أنه هو الألفاظ التي يتكون منها الكلام وبين أيضا أن القول يكون تاما مفيدا، وقد يكون ناقصا مبهما يقول: (أما القول فأصله أنه كل لفظ مدل به اللسان تاما

¹. لأبن جني : (ج ، 1، ص 17) .

أو ناقصا، فالتام هو المفيد أعنى الجملة وما كان في معناها من نحو صه وإيه، والناقص ما كان بصدد ذلك نحو زيد ومحمد وإن كان أخوك².

وهكذا إذا كان الكلام كما رأينا سابقا لا يكون إلا تاما مفيد فإن القول قد يكون تاما مركبا من ألفاظ ودال على معنى وقد يكون ناقصا، الأمر الذي يجعلنا نخرج بنتيجة أساسية وهي أن كل الكلام قول ، وليس كل قول كلاما، لأن القول مما سبق تبين لنا أنه أعم من الكلام مادام يجمع بين التام والناقص.

وابن جني في مسألة التفريق بين الكلام والقول يلتقي مع بعض اللغويين الذين لم يختلفوا معه وإنما أكدوا ما قاله في هذا الموضوع :

يقول ابن سيدة: (الكلام القول المعروف وهو ما كان مكتفيا بنفسه وهو جزء من الجملة)³.

وإلى هذا أيضا ذهب سيبويه حيث قال: (واعلم أن قلت) في كلام العرب أنما وقعت على أن يحكى بها بعد القول ما كان كلاما لا قولاً) .

من الواضح إذن أن كلام هؤلاء النحاة يؤكد كلام ابن جني السابق، فالكلام عندهم هو الجمل المكتفية بذاتها غير محتاجة إلى ما يوضحها ومن ثم يكون لها وقع معين وعذوبة على سامعها، في حين ارتؤوا أن القول هو تلك الألفاظ التي تبنى منها الجملة سواء كانت تامة أو ناقصة.

وقد ذهب ابن جني إلى أن الاعتقادات والآراء يمكن أن تسمى قولا وذلك لأن الاعتقاد يخفى ويندثر فلا يعرف ولا يظهر إلا بالقول والحكي عنه من طرف شخص معين

². " الخصائص " لأبن جني : 1 - ص 17 .

³ لمرجع السابق .

أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال مثل: (فلان يقول بقول أبي حنيفة ويذهب إلى قول مالك).⁴

وقد أطلق ابن جني القول على الاعتقاد لأنهما يتشابهان؛ فالاعتقاد لا يتم معناه إلا بغيره ويحتاج دائما إلى توضحيه وإلى العبارة والبيان عنه أي أنه ناقص والقول كذلك، وقد يكون ناقصا. واستشهد ابن جني على هذا ببعض الأمثلة من قوله: (ألا ترى أنك إذا قلت: قام وأخليته من ضمير فإنه لا يتم معناه الذي وضع في الكلام عليه وله، لأنه وضع على أن يفاد معناه مقتربا بما يسند إليه من الفاعل، وقام هذه نفسها قول وهي ناقصة محتاجة إلى الفاعل كاحتياج الاعتقاد إلى العبارة عنه).⁵

فالقول والاعتقاد متشابهان، ويمكن أن يعبر عن إحداهما بصاحبه ولهذا سميت الاعتقادات قولا إذا كانت سببا له وكان القول دليلا وعبرة عنها، ولا يمكن أن نسمى الاعتقادات كلاما لأن هذا الأخير لا يكون مستقلا ومستغنيا عما سواه. ومن الأدلة التي أعطيت للتفريق بين الكلام والقول: هو إجماع الناس على أن يقولوا (القرآن كلام الله ، ولا يقال القرآن قول الله).

فهذا المثال يضع حدا فاصلا بين المفهومين ومميزا لكل واحد منهما فالقرآن اصطلاح عليه أنه كلام الله لأنه كتاب الله منزله ومقدس وحظي بمكانه عظيمة من دون باقي الكتب السماوية. فالله سبحانه وضع فيه كل ما يصلح شؤون عبد من عبادته وتشريعاته واجب إتباعها، فهو يخاطب عباده بطريقة غير مباشرة عن طريق هذا الكتاب من ثم يمكن القول أن القرآن الكريم كلام الله لأنه تام مفيد غير قابل للتحريف ولا للتبديل، فهو خال من كل نقص ومن كل عيب اللذان يلاحظان عادة في كلام الناس ولو قلنا:

⁴ المرجع السابق نفسه :ج1- ص18 .

⁵ . " الخصائص " ابن جني : ج1 - ص20 .

(القرآن الكريم قول الله) لأنزلنا هذا الكتاب المقدس منزلة الشك ولأصبح قابلاً للتحريف ولتغيير أحكامه وسننه لأن القول يجوز أن يكون آراء معتقدة ومشكوكا فيها، ويؤكد هذا القول الحديث القائل: " أعوذ بكلمات الله التامات ".

وقد استشهد ابن جني بكلام سيبويه لكي يؤكد هذا الفرق بين الكلام والقول، حيث يقول سيبويه: (واعلم أن قلت) في كلام العرب إنما وقعت أن يحكى بها، وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً).⁶

فسيبويه هنا فرق بين الكلام والقول وأخرج الكلام مخرج ما قد استقر في النفوس وزالت عنه عوارض الشكوك مثل (زيد منطلق)، أما القول فهو بخلاف هذا ما دام على اعتقاد والآراء وعلى الكلمة الواحدة التي لا تملك قلب السامع .

ويذكر ابن جني بعض الأمثلة بخصوص القول الناقص إذ يقول:

" قام زيد " كلاماً، فإن قلت شارطاً " إن قام زيد " فزدت عليه (إن) رجع بالزيادة إلى النقصان، فصار قولاً لا كلاماً وكذلك لكونه مستقلاً، ولو أردت به صريح القسم لكان قولاً من حيث كان ناقصاً .

إذن هذه الأمثلة التي ذكرها ابن جني اعتبرها قولاً ناقصاً، فجملة الشرط " إن قام زيد "، وجملة القسم (حلف بالله) ناقصتان لأنهما يحتاجان إلى الجواب لكي يتم معناها، ثم انتقل ابن جني بعد هذا ليبين أن كلا من الكلام والقول قد يوضع كل منهما موضع صاحبه وذلك مثل قول رؤية .

لو أنني أوتيت علم الكلام علم سليمان كلام النمل⁷

⁶ . " الخصائص " ابن جني : ص 18 - 19.

⁷ الخصائص : ج 1-ص 22.

يريد قول الله عز وجل: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾، وعلى هذا اتسع فيهما جميعا اتساعا واحدا، فقال أبو النجم:

قالت له الطير تقدم راشدا أنك لا ترجع إلا حامدا ⁸

وهذا كله اتساع في القول ، ومما جاء منه في الكلام قول آخر :

فصيحت والطير لم نتكلم جابية طمت بسيل مفعم ⁹

وهكذا يمكن القول بأن الكلام حسب ابن جني مختص بالجمال المركبة ولا يقع على الآحاد المجردة، وأن ذلك إنما هو القول لأنه لا يصلح على الآحاد والمفردات والدليل الذي يقدمه هذا العالم هو أن العرب لما أرادت الواحدة من ذلك خصته باسم لا يقع إلا على الواحد وهو قولهم (كلمة) وهي حجازية وكلمة تميمية، ومعلوم أن الكلمة الواحدة لا معنى لها، وبالتالي لا تشجو ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع وإنما ذلك فيما طال من الكلام، ومثال ذلك قول أحدهم: " قلنا لها قفي لنا قالت قاف " ¹⁰

فهذا القدر من النطق لا يعذب ولا يجفو ولا يرق، وبالتالي ليس له وقع على السامع وبخلاف هذا استشهد ابن جني ببعض الأبيات الشعرية ليبين أن الكلام بخلاف الكلمة الواحدة من ذلك قول كثير:

لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركعا وسجدوا ¹¹

فالكلام من بيت كثير إنما يعنى به المفيد من هذه الألفاظ القائم برأسه المتجاوز لما لا يفيد ولا يقوم برأسه من جنسه ومن ذلك أيضا قول أحدهم :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

⁸ الخصائص : ج1- ص22.

⁹ نفسه : ج1- ص23 .

¹⁰ نفسه : ج1 - ص30 .

¹¹ المرجع السابق ، نفسه ج 1 - ص27 .

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسألت بأعناق المطئ الأباطح

فقله: بأطراف الأحاديث يعلم منه أنه لا يكون إلا جمل كثيرة فضلا عن الجملة الواحدة.

وخلصه من كل سبق يمكن القول بأن الكلام هو الألفاظ القائمة برؤوسها المستغنية عما سواها وهي الجمل. أما القول فهو أوسع من الكلام، إذ يجوز أن يكون ناقصا وقد يكون تاما لأنه قد يقع على أجزاء الواحد وعلى الجملة وعلى ما هو اعتقاد ورائي لا لفظ وجرس.¹²

وإذا كان ابن جني قد فصل بين الكلام والقول وحدد معاني كل واحد منهما على حدة، فإن بعض اللغويين الآخرين ميزوا بين الكلام واللغة واعتبروهما مفهوميين مختلفين في المعنى وفي الوظيفة .

يقول السيوطي: (فإن قال قائل: قد يقع البيان بغير اللسان العربي لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين، قيل له: إن كنت تريد أن المتكلم بغير العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده، فهذا أحسن مراتب البيان لأن لا يسمى متكلمًا فضلا عن أن يسمى بيّنا بليغا)¹³. فالسيوطي هنا من خلال كلامه يشير إلى نقطتين مهمتين يفرق بواسطتهما بين الكلام واللغة :

أولهما : أن المتكلم على شرط لغة معينة، بمعنى أنه يأتي بكلامه مصوغا بحسب النظم الصوتية والحرفية والنحوية من مفردات هذه اللغة، فالكلام بهذا نشاط مصوغ من رموز معينة بحسب قواعد معينة في اللغة .

ثانيهما : أن الذي يستعمل الإشارة فإنه يستعمل اللغة ولا يستعمل الكلام .

¹² نفسه : ج 1 - ص 32 .

¹³ "المزهر " للسيوطي ، ص 187.

وقد تعرض لهذه المسألة أيضا الدكتور تمام حساب حيث يقول: (اللغة نظام يدرس عن طريق مناهج متعددة للدلالة أو الأسلوب، والمعجم، والنحو، والصرف، والتشكيل الصوتي وتكون مكتوبة مسجلة، أو مفهومة صالحة للتطبيق الكلامي، وهي جهاز من الحروف والكلمات والصيغ والعلاقات النحوية في مجتمع ما يتعلمها الفرد اكتسابا فيدخل بذلك في زمالة اجتماعية)¹⁴.

أما عن الكلام فيقول:

(الكلام أداء نشاطي طبقا لصورة ذهنية وهو مجرد تشويش للهواء يدرس عن طريق منهج الأصوات، وهو التطبيق الصوتي والمجهود العضوي الحركي الذي ينتج عنه أصوات لغوية معينة، كما أنه عمل فردي يشمل ما ينطقه أو ما يكتبه الفرد)¹⁵.

يتضح من كلام تمام حسان أن هناك فرقا بين هذين المفهومين، فاللغة عنده ظاهرة اجتماعية تقع في مجال علم الاجتماع وتكون موصوفة ولا تفهم إلا بالتأمل، أما الكلام فهو أداء فردي في إطار اجتماعي نسمعه وننطقه ونبصره حروفا وكتابة في الكتب المختلفة، ولكن رغم هذا الموجود بينهما فكلاهما مرتبط بالآخر، إذ أن الكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط، ومن ثم فالكلام ضروري لفهم اللغة؛ لأنها نتيجة من نتائجه ما دامت تشكل وسيلة من وسائل الاتصال ونقل الأفكار والتعبير عنها. وهكذا رغم وجود اختلافات وفروق بين الكلام والقول من حيث إن الكلام يكون مكتفيا بنفسه ومستغنيا بنفسه عن سواه أي أنه هو الجميل، وإن القول قد يكون تاما أو ناقصا، ومن حيث إن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تنطبق ولا تفهم إلا بالتأمل، وأن الكلام فردي ننطقه ونكتبه، فإن أهم نقطة تجمع بين هذه المفاهيم الثلاثة هي كونها مكتسبة، تكتسب عن طريق الممارسة وبالتالي ليست غريزية.

¹⁴. "مناهج البحث في اللغة" تمام حسان، ص 43.

¹⁵ نفسه، ص 43.

أقسام وأنواع الكلام

إذا كان الكلام قد حظي باهتمام من طرف اللغويين السابقين، فإن هذه الأهمية تزداد أثناء دراسة أقسامه وأنواعه، ولعل أبرز لغوي دقق في هذه المسألة هو العالم اللغوي السيوطي في كتابه (المزهر)، حيث قسم الكلام إلى قسمين: الكلام الفصيح وغير الفصيح.

1. الكلام الفصيح:

عرف السيوطي الكلام الفصيح لغة واصطلاحاً، في التعريف اللغوي ركز على تعريف الراغب في مفرداته حيث يقول:

(الفصيح: خلوص الشيء مما يشوبه وأصله في اللبن، يقال: فصح اللبن وأفصح فهو فصيح ومفصح، إذا نعى من الرغوة).

قال الشاعر: وتحت الرغوة اللبن الفصيح.

ومنه استعرض فصح الرجل: جادت لغته وأفصح تكلم العربية وقيل بالعكس والأول أصح¹⁶.

أما التعريف الاصطلاحي فقد اعتمد فيه على أبي بكر الزبيدي في طبقاته حيث يقول:

(سمعت أبي يقول لأبي عمرو ابن العلاء: أخبرنا عما وضعت مما سميت عربية ليدخل فيه كلام العرب كله، فقال لا، فقلت كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة؟، فقال: أجمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات)¹⁷. نستنتج من هذا الكلام أن الكلمة الفصيحة تتحدد أساساً في كثرة استعمالها من طرف العرب.

¹⁶ "المزهر" للسيوطي، ج1 - ص 184.

¹⁷ نفسه، ج1 - ص 184-185.

وبعد تحديد السيوطي للفصيح من الناحية اللغوية لاحظ أن أرباب علوم البلاغة المتأخرون وضعوا ضابطا يضبط ما استعملته العرب بكثرة دون غيره فقالوا: الفصاحة في المفرد، خلوصه من تنافر الحروف والغربة ومخالفة القياس اللغوي. ويمكن أن نمثل لتنافر الحروف بقول أحد الأعراب عن غنمه: فتركتهما ترعى... ناقص.

أما الغربة فهمي أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها ، فيحتاج في معرفتها إلى أن يبحث عنها في كتب اللغة مثلما روي عن عيسى بن عمرو النحوي أسقط عن حمارة فاجتمع الناس عليه فقال: (مالك تكأكأتم علي كنتأكؤكم على ذي جنة، فافرنقوا عني) أي اجتمعتم تنحو¹⁸.

وفيما يخص مخالفة القياس يمكن التمثيل لها حيث يقول الشاعر: (أحمد الله العلي الأجلل) القياس: الأجل بالإدغام. وهناك من لاحظ أن من شروط الفصاحة خلوص من الكراهة في السمع، ذلك أن اللفظ له أصوات مختلفة منها الحسنة ومنها السيئة والقبیحة مثل قول أبي الطيب المتنبي كريم الجرش شريف النسب: أي كريم النفس.

ثم انتقل السيوطي بعد هذا إلى ذكر بعض اللغويين العرب بخصوص الفصاحة وشروطها ومن بينهم: بهاء الدين في " عروس الأفراح " الذي حصر هذه الشروط فيما يلي: أولاً: الغربة: حيث يقول: والغربة على الغربة بالنسبة إلى العرب الغرباء لا بالنسبة إلى استعمال الناس، وإلا لكان جميع ما في كتب الغريب غير فصيح. ثانياً: مخالفة القياس: فقال: ما خالف القياس وكثر استعماله فورد في القرآن الكريم فإنه فصيح .

¹⁸ "المزهر " للسيوطي ، ج1- ص 187 .

ثالثاً: الضرائر: قال مقتضى: ذلك أيضاً أن كل ضرورة ارتكبتها الشاعر فقد أخرجت الكلمة عن الفصاحة، ولاحظ السيوطي أن بهاء الدين يضيف عنصراً آخر كي تتوفر الفصاحة وهو النزوح عن ظاهرة الابتذال واستعمال الكلمات المبتذلة نحو "الصوم يفيد القطع".

غير أن العام جعلته لمحل المخصوص، وذلك يرجع لتغييرهم الكلمة وتحويلها إلى غير أصل الوضع.

واضح من خلال ما سبق أن السيوطي أثناء حديثه عن الفصح والفصاحة اعتمد على العديد من النحاة الذين سبقوه واهتدى بهديهم، فلم يعارضهم في آرائهم وإنما ساندتهم واكتفى بتدعيم رأيهم.

وقد ختم السيوطي هذا الفصل بذكر أشهر كتاب ألف في الفصح وهو كتاب "الفصح" لثعالبي.

أما فيما يخص الفصل الثاني الذي خصه السيوطي لمعرفة الفصح من العرب، فقد ركز على العديد من الأحاديث النبوية ليبين أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أفصح العرب، ثم انتقل للحديث عن فصاحة قریش، واستشهد بالعديد من العلماء أمثال ابن فارس الذي يقول "أخبرني أبو الحسن أحمد بن محمد مولى بني هاشم بقزوين، قال: أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحلهم أن قریشاً أفصح العرب واختارهم من جميع العرب، واختار منهم محمداً - صلى الله عليه وسلم .¹⁹

ثم استشهد ببعض النحاة الآخرين مثل الثعالبي، وبعد هذا انتقل إلى الحديث عن القبائل التي أخذت منها اللغة العربية والقبائل التي تأخذ منها، وهكذا يكون السيوطي قد أحاطنا بنظرة شاملة عن الفصح والفصاحة ومن الذي يتكلم بها.

¹⁹ "المزهر"، ج 1 - ص 214 .

2. ما دون الفصح :
في هذا الصنف تحدث السيوطي عن أنواع مختلفة من الكلام منها الضعيف، والمنكر، والمتروك، والرديء، والمذموم، والغرائب، والشوارد، والنوادر ومختلف اللغة.

1. النوع الثاني : الضعيف والمنكر والمتروك من اللغات :

أعطى السيوطي كل مستوى من هذه المستويات تعريفا خاصا حيث يقول:

" الضعيف ما انحط عن درج الفصح، والمنكر أضعف منه وأقل استعمالا، بحيث أنكره بعض أئمة اللغة، ولم يعرف، والمتروك ما كان قديما من اللغات ثم ترك، واستعمل غيره .²⁰

وقد ذكر السيوطي بعض الأمثلة لبعض اللغويين كابن الأعرابي/ وأبي زيد الأنصاري وأبو علي الفالي.

من ذلك مثلا ما قاله أبو زيد الأنصاري: شعب عليه لغة شغب وهمي لغة ضعيفة. ومن أمثلة المتروك قولهم: جرعت الماء بالفتح لغة أنكرها الأصمعي والمعروف جرعت بالكسر .

1. النوع الثالث : الرديء والمذموم من كلام العرب :

اتبع السيوطي نفس النهج الأول فعرف الرديء والمذموم واستشهد ببعض الأمثلة لبعض النحاة ، يقول بخصوص الرديء والمذموم : (هو أقبح اللغات وأنزلها درجة)²¹، ثم انتقل إلى الحديث عن القبائل المختلفة التي تختص بكل مظهر من مظاهر هذا النوع من الكلام، وهكذا تحدث عن الكشكشة، والكسكسة، والفحفة، والوهم، والعجعة، والاستطاء، والشنينة وإبدال الحروف محل بعض واستعمال العرب لبعض الألفاظ وإهمالهم لأخرى.

²⁰ نفسه ، ج 1 - ص 215 .

²¹ نفسه ، ج 1- ص 218.

1. النوع الرابع : الحوشي والغرائب والشوارد والنوادر :

أشار السيوطي إلى أن هذه الألفاظ تتقاربه وكلها خلاف الفصيح .²²

يقول السيوطي عن الحوشي : (حوشي الكلام وحشي غريبة) .

أما الغرائب والشوارد فيقول : (والغرائب جمع غريب، وهي بمعنى الحوشي، والشوارد جمع شاردة وهي أيضا بمعناها، وقد قابل صاحب القاموس بها الفصيح حيث قال مشتملا عن الفصح والشوارد وأصل التشريد التفريق فهو من باب أصل الشدود) . وبخصوص النادر والنوادر يورد ما جاء في الصحاح: ندر الشيء يندر ندورا: سقط وشد ويقول ابن هشام: لنادر أقل من القليل.

1. النوع الخامس : مختلف اللغة :

في هذا النوع اعتمد السيوطي على آراء ابن فارس في كتابه الصحابي حيث سرد الاختلافات اللغوية التي تناولها ابن فارس ومنها الاختلافات في الهمز، والتلين، والتقديم/ والحركات، والتأخير، والحذف، والإثبات، والإمالة، والتفخيم، والتذكير، والتأنيث، والإدغام والإعراب وصورة الجمع، والوقف والزيادة.

ويقول السيوطي أن هذه الخلافات منسوبة إلى أصحابها وقد كانت لقوم دون قوم فلما انتشرت تناولها الكل.²³

وقد استشهد السيوطي في هذا النوع من الكلام بآراء جني الذي يقول: في باب (اختلاف اللغات وكلها حجة) .

هذا حكم اللغتين إذا كانتا في القياس والاستعمال متدانيتين متراسلتين أو كلمة متراسلتين فما أن تقل احدهما وتكثر الأخرى جدا فإنك تأخذ بواسعها رواية وأقواها قياسا .²⁴

²² نفسه ، ج 1 - ص 233 .

²³ نفسه ، ج 1 - ص 254 .

ويختم السيوطي كلامه عن هذا النوع بقوله :

" فالصواب الأخذ بما عرف صحاه ولم يظهر فسادہ ولا يلتفت إلى احتمال الخلل فيه ما لم يبين " .

وهكذا يكون السيوطي قد أحاطنا بنظرة شاملة عن الكلام وأنواعه المختلفة سواء الذي سماه الفصيح أو الذي سماه دون الفصيح، وإن كان في هذا قد احتوى جل النحاة وسار على هديهم، ولم يأتوا بجديد يذكر ربما إلى يومنا.

يمكن إجمالها في هذا البحث في مجموعة من الملاحظات والاستنتاجات :

أولها أن علم اللغة حظي بالتأليف الغزير وبالبحث العميق من طرف جل اللغويين وخير دليل على هذا أن اللغة مثلا والتي هي فرع من هذا العلم ومحور من بحثنا ألف فيها العديد من الكتب إلى حد الصعوبة في قراءتها واستيعابها كلها، خاصة عند بعض اللغويين الكبار كالأصمعي (ت210هـ)، وابن جني (ت329هـ)، ابن فارس (ت395هـ)، والثعالبي (ت429هـ) وغيرهم من اللغويين الذين ناقشوا بفكرهم الثاقب ومنطقهم السليم أبحاثا كثيرة في اللغة، كالبحث عن أصلها ومقاييسها واضطرابها وشذوذها وتفرعها إلى لهجات، وغير ذلك من المواضيع اللغوية المختلفة والصعبة في الوقت نفسه.

ولقد تبين لي أثناء دراستي للغة أن أصعب مشكل واجه اللغويين خلال أبحاثهم هو مشكل أصل اللغة ، فهناك من قال بالتواضع مثل ابن فارس ، وهناك من قال بالاصطلاح مثل ابن جني وإن كان قد ظهر لنا أثناء هذه الدراسة أنه يتردد بين عدة آراء فلم يتخذ موقفا صارما في هذا الموضوع :

" فقوي في نفسي اعتقاد كونها توفيقا من الله سبحانه ، وأنها وحي " ²⁵

ثم قوله " فأقف بين تين التلتين حسيرا وأكاثرهما فأنكفي مكثورا " ²⁶

وقد ذهب ابن جني إلى أن جميع اللغات نشأت تقليد لأصوات الطبيعة ووجدت هذه النظرية تأييدا عند بعض اللغويين مثل عبدالواحد وافي، غير أن المنهج العلمي " لعلم اللغة " يرفض هذه الأدلة لأن لغة البدائيين ومراقبة المراحل الأولى للأطفال لا تساعدنا على الوصول إلى شيء، ذلك أنه كما يقول "فنديس: " لا يمكن استخلاص شيء في هذا

²⁵. " الخصائص " لأبن جني، ج 1 - ص 47 .

²⁶. المرجع نفسه في الصفحة نفسها .

الصدد من لغات المتوحشين، فالمتوحشين ليسوا بدائيين رغم الإسراف في تسميتهم بهذا الاسم في غالب الأحيان فهم يتكلمون لغات على درجة من التعقيد لا تقل عما في أكثر لغاتنا تعقيدا، ولكن منهم من يتكلم لغات على درجة من البساطة تحسدهم عليها أكثر لغاتنا بساطة، فهذه وتلك ليست إلا نتيجة تغيرات تغيب هنا نقطة البدء التي صدرت عنها ... فالعالم اللغوي سواء لجأ إلى اللغات المعروفة أم إلى لغات المتوحشين أم إلى اللغات التي يتعلم الأطفال بها الكلام فلن يجد أمامه في كل حال إلا بنيانا شيد منذ زمن طويل وتعاقبت على العمل فيه أجيالا عديدة خلال قرون طويلة فتبقى مسألة أصل الكلام واللغة خارجة عن نطاق خبرته".²⁷

كما أن (سابير) رفض تفسير نشأة اللغات بتقليد أصوات الطبيعة واعتبر هذا الأمر وهم باطل.

ومهما يكن من أمر فإنه تبقى لأبن جنى مساهمته الواضحة في محاولة التفسير، وذلك من تنبيهاته الكثيرة لقارئه من نحو قوله في عرضه لهذه النظرية :

"فإن أنت رأيت شيئا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه، ولا يتابعك على ما أوردناه، فأحد أمرين: إما أن تكون لم تمنع النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه، أو لأن لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقص أسبابها دوننا، كما قال سيبيويه أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر، ولعل هذه الاختلافات التي وقعت بين اللغويين راجعة في الأساس إلى أنهم لم يستطيعوا أن يكشفوا خصائص العربية على حقيقتها نظرا لعمق وقدم هذه اللغة وتأصلها .

²⁷. المرجع نفسه ، ج 2 - ص 164 .

المراجع :

1. القرآن الكريم .
2. الخصائص لابن جني: (تحقيق محمد علي النجار) دار الكتاب 1952 م.
3. " الصاحبى " فى فقه اللغة الشيخ الإمام بن فارس الرازى أبو الحسن القروينى ، طبعة 1328 م - القاهرة .
4. " اللغة " فتدريس : سابير .
5. اللغة العربية : معناها ومبناها : (تمام حسان) دار الثقافة .
6. " اللغة بين المعيارية والوصفية " دار الثقافة .
7. " المخصص " لأبن سيدة : طبعة بولان 1980 م ، (تحقيق لجنة التراث العربى فى دار الوفاق الجديدة ، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت) .
8. "المزهر فى علوم اللغة وأنواعها " ج : 1 ، لجلال الدين السيوطى (تحقيق محمد أحمد جاد الله على محمد البهاوى : محمد أبو الفضل إبراهيم) .
9. " دراسات فى فقه اللغة " الدكتور صبحى الصالح ، دار العلم للملايين .
10. " دلالة الألفاظ " إبراهيم أنيس : الطبعة الثانية ، 1963 م .
11. " فقه اللغة " عبدالواحد وافي ، دار النهضة 1979 م .
12. " فقه اللغة فى الكتب العربى " ، الدكتور عبده الراجحي ، 1979 م - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت
13. مستقبل اللغة المشتركة ، إبراهيم حسن .
14. " معجم لسان العرب (للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقى) .
15. " مناهج البحث فى اللغة " ، الدكتور تمام حسان ، دار الثقافة.